



البلاغة العربية في الوصف الفني القرآني،

Arabic rhetoric in the Quranic artistic description.

د. مسعود عبد الغفار محمد التويحي

كلية التربية — فرع القصيبة — ترونة — جامعة الزيتونة (ليبيا)

Abdalkremallafe2004@gmail.com

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2021/06/12 تاريخ القبول: 2021/06/14	تحدثت في البحث عن الوصف كمفهوم في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الوصف عند النحاة، إلى جانب ذلك تناول البحث التبادل الثنائي عن طريق التقابل بين لفظين، أو فكرتين متضادتين وليست عن طريق الحوار بين خصمين يتجادلان مستدلاً ببعض الأمثال المبرهنة من القرآن الكريم على قدرة الله — سبحانه وتعالى — على الجمع بين المتناقضين في الخلق والإبداع؛ لأن إدراكنا العقلي محدود، وهو بحاجة إلى التشبيه والتمثيل للاستدلال على تلك الحقائق، وإثباتها؛ لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد. ونهاية البحث اختتمت بسرد بعض من النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث.
الكلمات المفتاحية: ✓ البلاغة ✓ الوصف ✓ الصفة ✓ الطباق ✓ المقابلة	Abstract : <i>In this paper, the researcher talks about description as a concept in language and vocabulary and the difference between this concept and the description at the grammarians' point of view. In addition, this research presents dual argument by meeting of two words or two opposite ideas and not by an argument between two opponents. He has illustrated that by examples inferred from the Holy Quran on the power of Almighty God in combining opposites in creation and creativity. This is because our mental awareness is limited and it needs analogy and representation in order to infer those facts and prove them. This is due to the facts that the aim from using an example is to simulate the invisible by the visible and the absence by the presence. Finally, the research is concluded by presenting some results and recommendations that the researcher has achieved.</i>
Article info Received 2021/06/12 Accepted 2021/06/14	Keywords: ✓ Rhetoric : ✓ Description : ✓ Adjective: ✓ Counterpoint: ✓ The interview.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم وأشرف الناطقين بالضاد، سيدنا محمد بن عبد الله، الذي أوتي جوامع الكلم، وأكرمه الله بحسن البيان وفصاحة اللسان، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

يتضمن هذا البحث الموسوم بـ (البلاغة العربية في الوصف الفني القرآني) عن مقدمة، تتصدر الحديث عن الوصف باعتباره فن واسع يدخل في جميع الفنون النثرية والشعرية. فهو تعبير إنشائي قوامه الكلمات، ويعمل على نقل صورة محسوسة واقعية إلى ذهن المتلقي بواسطة الخيال، فهو تصوير للظواهر الطبيعية بشكل واضح وجلي، يكشف عن دقائق تلك الصورة وتقاسيمها، مُظهرًا سرَّ جمالها، وهو تحليل للمشاعر الإنسانية مبرزًا ما تخفيه في أعماقها من أحاسيس ومشاعر، ويكشف عن صنفين من المعاني، صنف يصف الأشياء التي فيها القول، والآخر وصف لأحوال القائلين، أو الذين جرى القول على ألسنتهم⁽¹⁾ وفي هذا البحث نكتفي بالحديث عن البلاغة العربية في الوصف الفني القرآني وبالتحديد عن الوصف الجدلي القائم على الطباق والمقابلة مستدلًا ببعض البراهين من التنزيل الحكيم، إلى جانب ذلك أتناول بعض المصادر التي تتعلق بالبحث، وقسمته إلى ثلاثة مطالب وخاتمة تلخص مضمون البحث، لقد استخدمت المنهج الوصفي التحليلي؛ لأنه يتماشى مع طبيعة البحث، سائلًا الله أن ينفع بها الجميع.

المطلب الأول:

الوصف:

مفهوم الوصف لغة واصطلاحاً الوصف في اللغة: هو تحلية الشيء⁽²⁾ والوصف وصفك الشيء بِجِلِّيَّتِهِ وَنَعْتِهِ⁽³⁾ والوصف من قولهم وصفت الشيء أصفه وصفاً وصفة نعته⁽⁴⁾ ويقال وصف الشيء له وعليه وصفاً وصفة أي: حلاه. وتواصفوا الشيء من الوصف، واستوصفه الشيء سألته أن يصفه له، واتصف الشيء أي صار متواصفاً، وأصل الوصف: الكشف

¹ القرطاجني أبو الحسن حزم، 1986 م، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقلد وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الناشر دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، ص13.

² ابن دريد، 1987 م، جهرة اللغة، تحقيق وتقلد رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين بيروت، لبنان - الطبعة الأولى. (مادة: صفو). 893/2.

³ الفراهيدي الخليل بن أحمد، بدون تاريخ، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزوم، إبراهيم السامرائي، الناشر دار ومكتبة الهلال، الطبعة. 354/1.

⁴ الزبيدي السيد محمد مرتضي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية، 459/24. 462.

والإظهار، يقال: وصف الثوب إذا نم عليه ولم يستره. وفي حديث عمر . رضي الله عنه: (إن لا يشف فإنه يصف، أي يصفها، يريد الثوب الرقيق إن لم يبين منه الجسد، فإنه لرقته يصف البدن فيظهر منه حجم الأعضاء)⁽¹⁾.

والوصف هو: (ذكر الشيء بحليته ونعته، والصفة الحال التي عليها الشيء من حليته ونعته كالزينة التي هي قدر الشيء)⁽²⁾. فالوصف إذن هو مصدر قائم بالغير. فتقول اتصف الشيء أي أمكن وصفه⁽³⁾ في حين أن الصفة هي الحال التي عليها الشيء من حليته ونعته.

فهي الإمارة اللازمة للشيء، كما يقال: وَزَّنْتُهُ وَزْنًا، والزنة قدر الشيء⁽⁴⁾.

فالصفة إذن قائمة بالذات كالعلم والسواد⁽⁵⁾ أي: إنها المعنى القائم بذات الموصوف وهذا يعني أن (الوصف يقوم بالواصف، والصفة تقوم بالموصوف، فقول القائل: (زيد عالم) وصف لزيد باعتباره أنه كلام الواصف لا صفة له، وعلمه القائم به صفة لا وصف)⁽⁶⁾ والوصف عبارة " عما دل على الذات باعتباره معنى هو المقصود من جوهر حروفه، أي: أنه يدل على الذات بصفة كأحمر فإنه بجوهر حروفه يدل على معنى مقصود وهو الحمرة⁽⁷⁾.

أما النحاة فلا يريدون بالصفة هذا؛ لأن الصفة عندهم النعت وهو - أي: النعت اسم الفاعل واسم المفعول، نحو ضارب ومضروب، أو ما يرجع إليهما من طريق المعنى، كمثل وشبه وما يجري مجرى ذلك⁽⁸⁾. فيقولون رأيت أحاك الظريف، فالأخ هو الموصوف والظريف هو الصفة⁽⁹⁾ وقيل إن النعت خاص بما يتغير مثل قائم وضارب، أما الصفة والوصف

¹ الحربي إبراهيم، 2003 م، غريب الحديث، مصدر الكتاب موقع جامع الحديث، غير موافق للمطبوع، الزخشري جار الله محمود، 2003 م أساس البلاغة، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر. بيروت، (مادة: وصف) 906.

² الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب ألفاظ القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، الناشر دار القلم، دمشق، سوريا، (مادة: وصف) 525.

³ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، الناشر دار صادر بيروت، لبنان، (مادة: وصف) 223/15.

⁴ ابن فارس أبو الحسين أحمد، 1999 م، معجم مقاييس اللغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان. (مادة: وصف) 634/2.

⁵ الصبان أبو العرفان محمد بن علي، حاشية الصبان على شرح الأشموني، الناشر دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. 57/3 - 58.

⁶ صليبا جميل، 1982 م، المعجم الفلسفي، الناشر دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان. 574/2.

⁷ الجرجاني علي بن محمد بن علي 1405 هـ، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى .. باب الواو. 326/1.

⁸ الكفوي أبو البقاء الحسيني، 1976 م الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، 45/5 - 46.

⁹ ابن منظور، لسان العرب، (مادة: وصف) 224 / 15.

فإنهما لا يختصان به بل يشملان، نحو (عالم وفاضل وباسم) لذا فإنه يقال صفات الله - تعالى - وأوصافه، ولا يجوز القول نعوته⁽¹⁾.

والوصف قد يكون حقاً وباطلاً⁽²⁾؛ وذلك بحسب مطابقته للواقع؛ فإن طابق الواقع فهو حق وإن لم يطابقه فهو باطل، باطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل الآية: 116) تنبيهاً على (كون ما يذكرونه كذباً)⁽³⁾ وكأن في قولهم هذا (إن ماهية الكذب وحقيقته مجهولة وكلامهم الكذب يكشف حقيقة الكذب ويوضح ماهيته، وهذه مبالغة في وصف كلامهم بكونه كذباً)⁽⁴⁾؛ لأن كلامهم هذا غير مستند إلى (وحي من الله، أو إلى قياس مستند إليه)⁽⁵⁾ وفي قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: الآية: 180) تنبيه على أن (أكثر صفاته ليس على حسب ما يعتقده كثير من الناس لم يتصور عنه تمثيل وتشبيه وإنه يتعالى عما يقول الكفار)⁽⁶⁾.

الوصف في الاصطلاح:

الوصف فن قسّم قديم وقوع عين الإنسان على المرئيات، في محاولة منه لمحاكاة الطبيعة، ليعبر عن إحساسه وكل ما يجري في ذهنه، فالوصف يلزم طبيعة النفس البشرية، خاصة في طور البداوة حيث تستبد بها نزعة التقليد⁽⁷⁾.

وقد عرّف العرب الوصف وتناولوه في شعرهم، فهو عندهم (ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات)⁽⁸⁾ من أجل ذلك أرجعوا أغلب الأغراض الشعرية إلى فن الوصف، (فالشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه)⁽⁹⁾، ثم فاضلوا بين الشعراء عن طريق الوصف، وأصبح عندهم ميزاناً تقاس به الجودة والرداءة، فأحسن الشعراء وصفاً من أتى في شعره (بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه وأولها حتى يحاكيه بشعره، ويمثله للحسن بنعته)⁽¹⁰⁾ أي: أنهم اشتروا في الشعر الجيد استيعاب أكثر معاني الموصوف، وقد عدوا الوصف الجيد ما

¹ الصبان علي، حاشية الصبان على شرح الأشموني (باب النعت) 57/3 - 58.

² الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب الفاظ القرآن (مادة: وصف) 525.

³ المصدر السابق، (مادة: وصف) 525.

⁴ الرازي، محمد فخر الدين 1938 م، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، المطبعة البهية المصرية الطبعة الأولى 132/20.

⁵ الزنجشيري حار الله محمود، 1947 م، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، - 640/2.

⁶ الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب ألفاظ القرآن (مادة: وصف) 525.

⁷ حاوي إليها، 1959 م، فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، الناشر دار الشرق الجديد، الطبعة الأولى 5/1.

⁸ بن جعفر أبو الفرج قدامه، نقد الشعر، تحقيق محمد عب المنعم خفاجي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة بدون تاريخ، ص 130.

⁹ القيرواني أبو علي الحسن بن رشيقي 1996 م، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تقدم صلاح الدين الهواري، هدى عودة، الناشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 439/2.

¹⁰ ابن جعفر، أبو الفرج قدامه 1978 م، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى - الناشر - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثالثة، ص 130.

وجد بلاغته في (قلب السمع بصرًا)⁽¹⁾ فأجود الوصف عندهم ما إذا نعت به الشيء الموصوف يجعلها الواصف كأنه مائل عياناً للسامع "حتى كأنه يصور لك الموصوف فتراه نصب عينيك"⁽²⁾ وذلك مثل قول الشماخ في نبالة:⁽³⁾

عَفَتْ غَيْرَ آثَارِ الْأَرَاخِيلِ تَعْتَرِي *** تَقَعَّقُ فِي الْآبَاطِ مِنْهَا وَقَاضُهَا⁽⁴⁾

فهذا البيت يصور لك هرولة الرخالة، ووقاضها في آباطها تتقعقع.

من هنا جاء سبب تفريقهم بين الوصف والتشبيه؛ والفرق بينهما هو إن الوصف إخبار عن الشيء، فهو (وسيلة إلى استحضار الصورة الطبيعية المختلفة)⁽⁵⁾، أما التشبيه فهو مجاز وتمثيل⁽⁶⁾.

المطلب الثاني:

(الوصف الجدلي القائم على الثنائية (الطباق والمقابلة)

إنني في هذا المطلب أتلمس خطي في الوصف قائمة على الثنائية الواصفة المعبرة عن الأفكار، لكنها ليست عن طريق الحوار بين خصمين يتجادلان، إنما عن طريق التقابل بين لفظين، أو فكرتين متضادتين تفصح كل واحدة منهما عن مضمونها تاركة للأخرى جمالية مقابلتها لها في المعنى متيحة للعقل فرصة تدبر البلاغة المتأتمية من هذا التقابل وإبراز المعاني المشعة من حروفها، واصفة لها تلك القدرة العجيبة التي استطاعت أن تجمع المتناقضات في وقت واحد مبرزة سر إعجاز القرآن الكريم في الجمع بين الأضداد، وسر هذا الخلق العجيب مجبراً الإنسان والكون أجمع على الاعتراف بالله - تعالى - رباً واحداً لا شريك له في ملكه.

¹ القيرواني أبو علي الحسن بن رشيق 1996 م، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . 440/2.

² العسكري أبو هلال الحسن، 2004 م، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر المكتبة العصرية صيدا - بيروت . / 128.

³ الغطفاني الشماخ بن ضرار بن حرملة الديلمي، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابعة، وكان شديد متون الشعر، وكان أرحز الناس على البديهة، جمع بعض شعره في ديوان مطبوع، شهد القادسية، وتوفي في سنة 22 هـ - 642 م، وأخباره كثيرة، ينظر الأصفهاني أبو الفرج، بدون تاريخ، الأغاني، شرحه ووضع فهراسه الأستاذ علي مهنا وغيره، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة جديدة منقحة ومصححة - 184/9، عبد القادر بن عمر البغدادي خزانة الأدب . وضع هوامشه الدكتور محمد نبيل طريفي . الناشر دار الكتب العلمية . بيروت - لبنان . الطبعة الأولى 1998 م - 186/3 .

⁴ البيت من (الطويل) في ديوانه ص 211، حققه وشرحه صلاح الدين المهدي . الناشر دار المعارف بمصر كورنيش النيل - القاهرة 1968 م / 211، الوفاض: جعبة السهام إذا كانت من آدم ليس فيها خشب . لسان العرب (مادة: وفض) 250/15.

⁵ طه حسين، 1982 م، حديث الأربعة، الناشر دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة عشرة . 59/1 . 70.

⁶ بن الأثير الحلبي نجم الدين أحمد بن إسماعيل، بدون تاريخ، جوهر الكنز، تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة، تحقيق محمد زغلول سلام . الناشر منشأة المعارف . الإسكندرية . مصر 63/1.

إن الوصف الجدلي في هذا المطلب يتخذ من الثنائية أداة في بيان حدود هذا النوع من الوصف عن طريق (الجمع بين الضدين؛ لإبراز جمال الصورة التي تحدث نتيجة عرضها معضدها، مما يساعد على إبراز ما فيها من جوانب تخفي عنا فيما إذا عرضت بمفردها؛ لأن جمال الشيء الحسن يظهر حين يقابل بسوء الضد القبيح)⁽¹⁾.

وبما أن الثنائيات (لا تجمع معاً في شيء واحد، فالسلب مقابل للإيجاب وال ضد يقابل الضد، والمتضادان يتقابلان والعمى يقابل البصر)⁽²⁾؛ لأن المتقابلين كما يقول ابن سينا:⁽³⁾ " هما اللذان لا يجتمعان في موضوع واحد من جهة واحدة في زمان واحد معاً"⁽⁴⁾.

لذا فإن اجتماعهما يكون بفعل أمر خارق لعادة البشر، وهو يدخل في قدرة الواحد الأحد الذي يقدر على الجمع بين الأضداد.

من هنا كان الوصف الجدلي القائم على الثنائية وسيلة من الوسائل التي وصفت لنا عظيم قدرته - تعالى -، ثم إن هذه الثنائية عن طريق الطباق مرة والمقابلة مرة أخرى استطاعت أن تقدم لنا وصفاً دقيقاً لحالات من الصور التي حدثت، أو سوف تحدث؛ لأنها تعرض لنا وصفاً لطرفين في آن واحد ليتسنى لنا المقارنة بين الحالين، أو بيان صورة واحدة هي بين الحالين، كما سيتضح لنا جلياً في هذا المبحث من أجل ذلك انقسم هذا المطلب إلى قسمين، أولهما: الطباق؛ وثانيهما: المقابلة.

أولاً الطباق:

الطباق في اللغة مأخوذ من الفعل (طبق)، فيقال: طبقت بين الشيئين طباقاً. أي: جعلتهما على حذو واحد وهو مأخوذ من قولهم طابق البعير، أو الفرس إذا وضع رجله في موضع يده⁽⁵⁾.

أما في الاصطلاح فهو: الجمع بين المتضادين المتقابلين⁽⁶⁾ أي: أن يؤتى بالنقيضين والضدين في الكلام⁽⁷⁾.

¹ الربيعي موسى سلوم، 1958 م. الترغيب والترهيب في القرآن الكريم دراسة بلاغية، رسالة ماجستير كلية آداب المستنصرية، ص 205.

² القرعان فايز، الطبعة بدون تاريخ، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، 27.

³ ولد أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ببخارى سنة 370 هـ، ودرس القرآن والأدب، وتعلم الحساب والمنطق، ثم تعلم الطب ومارسه، وتوفي سنة 428 هـ، ومن مصنفاته كتاب الشفاء، وكتاب القانون، ينظر الزركلي خير الدين، 2002 م، الأعلام، الناشر دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - 241/2.

⁴ ابن سينا الحسين بن عبد الله، 1959 م، كتاب المقولات ضمن كتاب الشفاء، قسم المنطق، تحقيق جورج قنواي - محمود الخضيرى، وغيرها. القاهرة، 241.

⁵ الزنجشيري، أساس البلاغة، مادة: (طبق)، 515.

⁶ القزويني الخطيب، 2004 م، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، الناشر المكتبة العصرية، صيدا - بيروت - ص 333.

⁷ العلوي يحيى بن حمزة، 2010 م، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، تحقيق الشربيني شريدة، الناشر دار الحديث، القاهرة، ص 281.

من هنا كان لوضع القدم مكان اليد عند البعير، أو الفرس طباقاً؛ لأنهما مختلفان في النوع متفقان في مكان وضعهما، فهما متناقضتان، فكان للجمل، أو الفرس القدرة على ذلك من خلال سرعتهما التي أتاحت لهما مثل هذه العملية التي قد يعجز عن فعلها غيرهما من ذوات الأربع.

والطباق من المحسنات المعنوية في علم البديع التي اعتمدها القرآن الكريم في الوصف؛ لأجل إبراز قدرته - سبحانه - وعظمته وغضبه وعقابه، فجاء به ليكون الأكثر تأثيراً، والأشد وقعاً في النفوس، عن طريق تقابل دلالات كل واحدة من الألفاظ المتقابلة، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الكشف عن العلاقات الدلالية لتلك الألفاظ (والأهمية الأساسية التي نعلق عليها إنتاج الدلالة إنما تعود إلى رصد وحدات تعبيرية، مع رصد شبكة علاقتها ، وتجميع كل ذلك في مستوى واحد يعود إلى السطح أولاً، ثم يمتد إلى الذهن ثانياً⁽¹⁾، ولا يمتد ذلك إلا عن طريق الوحدات التعبيرية التي تشكل العنصر الأساس في تحديد الدلالات الاستدعائية المتأنية عن شبكة العلاقات التي يفرضها السياق المبني في الوصف الجدلي القائم على الثنائية بين الألفاظ .

إن هذه الدلالات التي أنتجتها الثنائية التقابلية في القرآن الكريم تستمد معانيها من معجمية تلك الألفاظ غير أنها تنتقل (في بعض جوانبها من المعنى المعجمي إلى معنى آخر، يشكل بعداً عميقاً من خلال الوحدات التعبيرية في التقابل)⁽²⁾، وذلك أن المفردات المعجمية تقيم فيما بينها علاقات ما، وهي تتعلق بمفردات أخرى تقع خارج نطاق وحداتها غير أنها واقعة داخل النطاق السياقي المشكل للبنية الكلية التي تحتويها، لذا وجب علينا النظر في الدلالات والانتقال من المستوى السطحي إلى المستوى العميق الذي يشكل النقطة الجوهرية المنبثقة عنها الثنائية التقابلية (فالدلالات السياقية ليست هي سلسلة الألفاظ الظاهرة للمتلقي ، وإنما هي ظاهرة لمعنى حقيقي مختلف وراءها، يستطيع الدارس أن يكشفه بقدراته الخاصة)⁽³⁾؛ لأن النسق الأسلوبي (صورة لغوية تظل وراءها ظلال المعاني هائمة على وجهها حتى تتلمس ذهنًا مخصباً بإدراكٍ واعيٍ شفاف يلتقط بغريزته الوشائج اللاشعورية التي تأنف من التوضيح السقيم واللغوي العقيم)⁽⁴⁾.

إن الثنائية القائمة على الطباق والمقابلة هي وحدة من الوسائل التي تساعد على النظر في الدلالات الكامنة وراء الألفاظ من خلال (اعتماد طرفين بينهما علاقة جدلية تتيح لهما أحياناً تبادل مكانيهما، فلا نتصور بينهما انفصالاً تاماً، أو اتصالاً تاماً، بل هناك موافقة ومخالفة تحقق قدرًا مناسباً من المشاركة تتيح للدلالة أن تبرز وتنفذ)⁽⁵⁾.

¹ محمد عبد المطلب، 1988 م، بناء الأسلوب في شعر الحداثة، التكوين البديعي، القاهرة، ص 151.

² القرعان فايز، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، ص 286 .

³ المصدر السابق، ص 285.

⁴ عبد رجا، 1985 م، لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي الحديث، الإسكندرية، مصر، منشأة المعارف، ص 80.

⁵ عبد المطلب محمد، 1995م، جدلية الأفراد والتركيب في النقد العربي القديم، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ص 67.

من هنا اعتمد القرآن الكريم الجدل القائم على الثنائية ليعبر من خلاله قدرة الله - تعالى - على الجمع بين المتناقضين في الخلق والإبداع، إذ إنه خلق الاثنين وأنشأهما، فهو لم يخلق طراً دون الآخر، وإنما الاثنين معاً فكانت الثنائية بين هذين المتناقضين هي التي وصفت لنا عظمة قدرته سبحانه كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: الآية : 26. 27).

إذ يصف لنا الحق - تعالى - عظمة قدرته وتمكنه من الجمع بين المتناقضات، فهو وحده القادر على ذلك؛ لأن الأشياء تتميز بالتضاد بينها، وكأنك وأنت تقرأ هذه الآية المباركة في حركة مستمرة يمج بها النص القرآني المبارك نتيجة لاحتكاك تلك المتناقضات فيما بينها؛ لأنها تعمل في مجال واحد، فتكشف عن فنية الأسلوب وتحلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة⁽¹⁾.

ولقد مهد الباري - عز وجل - لذلك بقوله: (مَالِكُ الْمُلْكِ) إذ يمكن أن يكون المراد بذلك (طبيعته وذاته أي يصبح أن يقع تحت الاستيلاء فيشمل جميع ما سواه عز وجل وجوداً، أو عدماً ... فهو مسلط على إيجاد المعدم وإعدام الموجود وإنما عبر سبحانه وتعالى بلفظ الملك دون غيره لإظهار معنى التسخير، فكما أن المملوك مسخر تحت إرادة المولى كذلك يكون جميع الممكنات بالنسبة إليه عز وجل⁽²⁾.

ثم يأتي بعد ذلك بالمتناقضات (تؤتي - تنزع) و(تعز - تذلل) و(الخير - والشر) و(الليل - والنهار) و(الحي - الميت)، فالآية القرآنية (تصف قدرة الله - تعالى - في أوسع معانيها وسلطانه في أكمل مظاهره، فجمعت بين الضدين، وحكمت بأنه يقدر على الأمرين)⁽³⁾. فجاءت الطباقات دليلاً على أنه تعالى وحده الذي يستطيع الجمع بين هذه الصفات المتناقضة التي لا تجمع في غيره.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي﴾ (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى الآية: 43 - 45) نجد أن الطباقات الواردة في الآية الكريمة تصف أيضاً عظمة قدرة الله - تعالى - في خلق الأشياء (فقال تعالى هو أوجد ضدين الضحك والبكاء في محل واحد والموت والحياة والذكورة والأنوثة في مادة واحدة وإن ذلك لا يكون إلا من قادر واعترف به كل عامل)، وبلاغة الطباق هنا تظهر عن طريق الجمع بين الأضداد في الكلام؛ لأن الذهن

¹ أبو الرضا سعد، 1988م، في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، منشأة المعارف - الإسكندرية، ص 37.

² عبد الأعلى السيد، 2010م، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مطبعة نكين 5 / 210.

³ لاشين عبد الفتاح، 1979 م، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف القاهرة، الطبعة الأولى، ص 22.

يستحضر الضد على الفور قبل مجيء الطرف الآخر ⁽¹⁾ أي إن الطباق يشير إلى حركتين في الذهن هما: الحركة الأفقية أو ما يسمى (بالحضور)، والحركة العمودية أو (ما يسمى بالغياب).

وهذا يعني أننا نلاحظ أن هناك خطين (الخط الملفوظ هو الخط الأفقي، والخط التقديري هو الرأسى، إذ إن البياض يستدعي السواد رأسياً قبل مجيئه في الخط الأفقي، والسواد عندما يحضر في الخط الأفقي يستدعي البياض رأسياً دون اعتبار للخط الأفقي) ⁽²⁾، أي إن الطباق ينقلنا إلى الحركة الباطنية (الغياب) أو ما يسمى بغياب المعنى في الذهن، عن طريق الحضور والغياب؛ لأن حضور النقيض يستدعي حضور نقيضه غياباً، مما يعطي للتقابل طبيعة تكرارية مزدوجة من خلال حركة الذهن بين المتناقضين ⁽³⁾ والطباق بين (أضحك، وأبكى، وأمات وأحيا، والذكر والأنثى فالأطراف (أضحك، أمات، الذكر) تتقابل أفقياً مع (أبكى، أحيا، الأنثى)، ومن هنا يصبح طباق التضاد على مستوى الجملة (الحضور)؛ لأنهما أضداد تقع في إطار الحضور الذهني، وهذا يؤدي بنا إلى بيان كيفية حدوث التقابل الذهني الذي يتمثل في إطار الغياب الذهني للمتضادين ⁽⁴⁾.

ونأخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي﴾ (النجم الآية 43) إذ إن قراءة أضحك تولد ذهنياً هو أبكى، وقراءة أبكى تولد ذهنياً هو أضحك، وعندها تنتقل صيغة الطباق من التقابل الظاهر إلى التقابل بين الظاهر وما في الذهن، وهو ما يعني أننا في (مواجهة بناء تكراري من الطراز الأول ...، إن التكرار يتحقق بالنظر إلى عملية الحضور والغياب، فالطرفان الحاضران على مستوى السطح متقابلان، لكنهما يستدعيان طرفين غائبين لإكمال الدائرة التكرارية) ⁽⁵⁾، وهذا التكرار يؤدي إلى إضفاء صفة الديمومة والاستمرارية في القدرة على الخلق والإبداع لله - تعالى وحده - ومثل هذا القول يصدق على الطباقين الآخرين (أمات وأحيا)، (الذكر والأنثى) فإن قدرة الله - تعالى - على الإماتة والأحياء وخلق الذكر والأنثى مستمرة في كل الأزمنة، ولا يقدر على ذلك غيره تعالى فإن (السياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر، وتفيد الحصر الربوبية فيه تعالى وانتفاء الشريك قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ (البروج: الآية: 13) يتخذ الحق تعالى من الطباق وسيلة في وصف عظمة قدرته عن طريق الثنائية المتأنية من الجدل بين الابتداء والإعادة وعملية التكرار الحاصلة من هذا البدء والإعادة . والطباق ليس بين البدء والإعادة وإنما بين (الابتداء) ومرادف (الإعادة)

¹ السكاكي أبو يعقوب، 1982 م، مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان سلمان، الناشر دار الرسالة، بغداد، الطبعة الأولى، ص 356.

² محمد عبد المطلب، 1997 م، البلاغة العربية، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ص 356.

³ محمد عبد المطلب، بناء الأسلوب في شعر الحداثة، التكوين البديعي، ص 110 - 111.

⁴ القرعان فايز، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، ص 42.

⁵ محمد عبد المطلب، 1997 م البلاغة العربية قراءة أخرى، ص 356.

المتمثل في الإفناء؛ لأنه تعالى (يخلق الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء ليحازيهم يوم القيامة⁽¹⁾ من حيث أن (مبدأ الشيء هو الذي منه يتركب أو منه يكون، ... والله هو المبدئ المعيد أي: هو السبب في المبدأ والنهاية)⁽²⁾.

والإعادة من العود وهو الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه إما انصرافاً بالذات، أو بالقول والعزيمة)⁽³⁾.

إذ أن الآية الكريمة تقيم تقابلاً بين كلمتي (يبدئ) (ويعيد) وبما أن كلمة (يعيد) لا تتضاد بلفظها مع (يبدئ) وإنما بمعناها؛ لأنه لا يعيده إلا بعد أن يفنيه، فهو عندما يبدئ، كيف يمكنه الإعادة من غير أن يفنيه لذا فإن التضاد كان بالمعنى، وهذا يعني أن المضاد المعنوي جاء قبل المضاد اللفظي، مما يؤدي بنا إلى القول أن (هذا النوع من التضاد يجمع بين المعنوي واللفظي)⁽⁴⁾، فالكلمة الأولى لفظي والثانية معنوي من هنا يمكنني أن نسمي هذه العلاقة التي بينهما (بالتناظر)؛ لأنها لا تصل إلى التضاد على مستوى العبارة⁽⁵⁾ غير أن المرادف (ليعيد) المتمثل بـ(يفني) يتضاد مع (يبدئ) من هنا كانت تسمية البلاغيين لهذا النوع من الطباق (بالتضاد المعنوي)⁽⁶⁾ فيصبح إذن التضاد الفعلي بين البدء البدء والإفناء. وعن طريق هذا الطباق يتضح لنا تكرار عملية البدء والإعادة، فهو يبدئ ثم يعيد ما فني منهم، وبهذا يصف لنا عظمة قدرته تعالى، ثم إن في الآية المباركة وصفاً تعليلياً لشدة بطشه تعالى أي إنه (يبدئ البطش ويعيده أي بمعنى يبطش بهم في الدنيا والآخرة أو دل باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه)⁽⁷⁾ وذلك إنه تعالى مبدئ يوجد ما يريد من شيء إيجاداً ابتدائياً من غير أن يستمد ذلك من شيء غير نفسه، وهو تعالى وحده يعيد ما كان إلى ما كان وكل حال فاتته إلى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد ولا يفوته فائت زائل⁽⁸⁾.

إن القرآن الكريم يوظف الطباق في وصف أحوال الناس وما كانوا عليه، أو ما سيكونون عليه يوم القيامة، أو يصف أحوالهم النفسية والمعنوية كما في قوله تعالى عندما يصف لنا أحوال الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: من الآية: 29) فيتضح لنا في الآية الكريمة طباقاً خفياً (معنوياً)⁽⁹⁾ بين (أشداء ورحماء).

¹ الرازي، محمد فخرالدين، 1938 م، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ص 31 / 122.

² الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن الكريم، (مادة: بدأ) ص 40.

³ المصدر السابق (مادة: عود) ص 351.

⁴ القرعان فايز، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، ص 50.

⁵ المصدر السابق. 50.

⁶ السيوطي جلال الدين، 1969 م، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 315/1.

⁷ الزمخشري جار الله محمود، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 731/4.

⁸ الطبطبائي محمد حسن، 1391 هـ، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 253/20.

⁹ الصعدي عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، مصر، 4 - 11.

وإذا أنعمت النظر في الآية الكريمة وجدت أن (الشدة) تقابلها في التضاد (اللين) وليس الرحمة غير أن (الرحمة) متسببة عن اللين لذا فإن التضاد بين (الشدة) (واللين) الذي هو مرادف (الرحمة)، خلا (أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينهما، وكانت المقابلة لاثقة⁽¹⁾ وهو تضاد معنوي، وهو أيضاً لفظي فالكلمة الأولى لفظية والثانية معنوية، وبما أن العلاقة بينهما لا تصل إلى التضاد فيمكننا أن نسميها تنافراً، والتضاد الفعلي يصبح بين (الشدة) واللين، والآية الكريمة (تتجاوز هذا الموقف الشكلي لتحلي هذه الصورة المضيئة الرائعة لصحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلال لقطات مؤتلفة متآزرة)⁽²⁾ وهي تصف لنا عن طريق التكرار الناجم عن هذا الطباق الاستمرارية في الشدة على الأعداء والرحمة الناجمة عن اللين فيما بينهم وهي الأخلاق الحميدة التي دعا إليها القرآن الكريم فهم أشداء دائماً وفي كل معركة على أعدائهم ، وهم رحماء في كل وقت وحين بعضهم مع بعض.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَحَسْبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ (الكهف جزء الآية: 18) يصف لنا الحق سبحانه وتعالى قدرته على حفظ الإنسان من غير تغيير سنوات عديدة، عن طريق الثنائية القائمة على التضاد بين (أيقاظاً ورقوداً)؛ لأن اليقظة ضد الرقود.

وعند النظر في التضاد تعود إلى أذهاننا عملية الحضور الذهني والغياب فإذا نطقنا بلفظ (أيقاظاً) التي تكون حاضرة في الذهن فإن لفظة (رقود) الغائبة تتبادر إلى الذهن فوراً، وكذلك الحال عند قولنا (رقود) وهذا يصف حال أهل الكهف بدقة فيساعد على إعطاء صفة الديمومة الزمنية لحالمهم فهي ليست مختصة بزمن دون غيره، أو بعصر دون آخر، وإنما الناظر لهم في كل حين وكل عصر يحسبهم أيقاظاً وهم رقود، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن عملية التكرار بين الحضور والغياب الذهنيين تجلي لنا قدرة الله - تعالى - على تكرار حدث أصحاب الكهف ، وهذا يساعدنا على إدراك قدرة الله - تعالى - الذي جمع بين المتضادين في حال أصحاب الكهف، فهم ليسوا أيقاظاً ؛ لأنهم رقود غير أن الناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً ، والطباق إذن يقع في ظن الناظر إليهم ، ثم إن هذا التضاد وما يحدثه من تكرار - الغياب والحضور - يصف لنا الحال التي عليها الناظر، فهو في حيرة وتردد في الحكم عليهم ومعرفة فيما إذا كانوا أيقاظاً أم رقوداً، ولا يكون الوصف بهذه الدقة لولا وجود هذا الطباق القائم على الجدل بين (أيقاظاً ورقوداً) وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَنَحَّيْتُهَا الْأَشْقَى ○ الَّذِي يَصْنَى النَّارَ الْكُبْرَى ○ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (الأعلى الآية: 11. 13) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (طه الآية: 74) يجسد لنا طباق السلب بين (لا يموت) ، (ولا يحيى) حال الكافر في النار واصفاً ذلك الخلود وهو مصحوب بأشد المعاناة المتمثلة بتمنيه للموت ولا يناله ، وهو مع ذلك ليس بجائز على الحياة . ولا شك في أن الموت والحياة قبل صياغتهما في الآية الكريمة يقعان في تضاد لفظي؛ لأن الموت ضد

¹ اليماني يحيى بن حمزة العلوي، 2010م، الطراز، تحقيق الشريبي شريدة، الناشر دار الحديث، القاهرة، 2 / 292.

² أبو الرضا سعد، 1988 م، في البنية والدلالة، رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، 40 ص .

الحياة ونقيضها غير أن دخولهما في الآية المباركة جعلهما من طباق السلب (تقابل سلب)؛ لأنهما منفيان، وإذا أنعمنا النظر في الآية المباركة وجدنا إن مرادف (لا يموت) هو (يحيى) وهما متضادان، ثم إن النفي الداخِل على المتقابلين (لا يموت)، (ويحيى) يولد رديفين متماثلين (يحيى)، (يموت) اللذين بدورهما يولدان مرادفين آخرين لهما مما يؤدي بنا إلى سلسلة من المترادفات لا تنتهي⁽¹⁾، هذه السلسلة هي التي تصف لنا بدقة حال الأشقى الذي يتمنى الموت فلا ينال له تاركاً (الخيال يرسم صورة تملأ القلب رعباً وخوفاً فهو يتمنى الموت من شدة ألمه ولا يناله، وهو لا يحيا حياة تريحه)⁽²⁾ وكأن التقابل في الآيتين الكريمتين يشير إلى الحياة والموت اللذين لا ينتهيان عند ذلك الشقي بسبب العذاب الذي يناله؛ لأن (التأرجح بين الحياة والموت أفضح من الصلي)⁽³⁾.

وهذا ما يتضح لنا لأن؛ (لا يموت) يولد مرادفاً مثبتاً (يحيى) وهو بدوره يولد مرادفاً سالباً (لا يحيى).

هكذا يصف لنا الطباق حال ذلك الأشقى في جهنم، حيث (يمتد بقاؤه فيها ويطول، فلا هو يموت فيجد طعم الراحة، ولا هو يحيا في أمن وراحة، إنما هو العذاب الخالد، الذي يتطلع صاحبه إلى الموت كما يتطلع إلى العذاب، إلى الأمنية الكبرى)⁽⁴⁾. إذن فالطباق وصف لنا استمرار ذلك الأشقى في العذاب وخلوده، ثم وصف لنا حاله النفسية في تمنيه الموت، وهنا نجد الازدواجية في الوصف، تلك الازدواجية لا نلمسها إلا عن طريق هذا الوصف الجدلي القائم على الثنائية، فنلمح صورة جديدة (تتعمق في المشاعر في صمت ورهبة؛ لتحرك فيها الإحساس بالحيرة والقلق الغامضين من تلك الحال التي لا نهاية لها في الواقع ولا في الخيال)⁽⁵⁾.

وفي قوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور الآية: 16) يصف لنا الباري غز وجل حال أهل النار يوم القيامة عن طريق الجدل القائم بين (اصبروا)، (لا تصبروا) وهو من طباق السلب بين مثبت ومنفي، هذا الطباق وما يحدثه من تكرار في التضاد بين الإثبات والنفي أي بين إثبات الفعل ونفيه، فإنه يصف لنا الاستواء في الأمرين يوم القيامة (الصبر وعدمه)؛ لأن الصبر كعدمه، فمن يصبر يخلد في ذلك العذاب، ومن يجزع (لا يصبر) يدم فيه أيضاً، فتلك الدار هي دار الجزاء وليست دار امتحان. وبهذا يمكننا التمييز بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة والتباين بينهما، فالأول ينفع معه الصبر في حين أن الثاني لا يجدي نفعاً معه لذا عقب الله تعالى . على ذلك بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (الطور من الآية: 16)

¹ القرعان فايز، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، ص 58 - 59.

² الربيعي موسى سلوم عباس، الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، ص 204.

³ الزمخشري جار الله محمود، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 4 / 74.

⁴ قطب سيد، في ظلال القرآن، الناشر دار الشروق، القاهرة. الطبعة بدون تاريخ، 8 / 557.

⁵ قطب سيد، 1966 م، مشاهد القيامة - دار المعارف - مصر، ص 60.

ومن خلال ذلك يتضح جلياً أن القرآن الكريم قد وصف الجدل القائم على الشائبة في خدمة الوصف مستعيناً في ذلك بعملية الحضور والغياب الذهنيين للفظين المتطابقين، مما يساعد على إضفاء عنصر الاستمرارية والديمومة للحدث تارة، وتارة أخرى الإحاطة والشمول، وثالثة الاستواء في الأمرين.

وفي جميع الأحوال يتجسد لنا عن طريق الطباق عظمة قدرة الله - تعالى - في الجمع بين الأضداد وتفرد في ذلك؛ لأنه هو الخالق للكون أجمع لا شريك له في ذلك.

ثانياً المقابلة:

المقابلة في اللغة مأخوذة من قبل وهو ما قابلك من جبل وعلو من الأرض، وقد قيل قبلاً وقبلاً. مواجهة وعياناً⁽¹⁾ ومن هذا التعريف أخذ المعنى الاصطلاحي للمقابلة؛ لأن الجبل أو العلو يمثل عارضاً ومانعاً وعائقاً.

فالمقابلة إذن تطبيق لفظي؛ لأن الكلمة تقابل فيه أختها على ترتيب، وهي (إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ، على جهة الموافقة أو المخالفة)⁽²⁾.

نفهم من هذا أن المقابلة قائمة على التطبيق اللفظي، أي التطابق القائم بين الألفاظ فهي إذن (أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معان متوافقة، ثم بما يقابلهما، أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل)⁽³⁾.

من هنا كان الطباق والمقابلة (متشابهين في حصول التضاد، إلا أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدّين، في حين أن تكون المقابلة غالباً بالجمع بين أربعة أضداد أو أكثر - ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه - والطباق لا يكون إلا بالأضداد، أما المقابلة فبالأضداد وغيرها)⁽⁴⁾ من هنا كانت المقابلة واحدة من الأساليب البلاغية التي اعتمدها القرآن الكريم في الوصف الجدلي؛ لأنها تفيد في رسم الصورة المجسمة المؤثرة النابضة بالحياة والحركة، فإذا قرأها الإنسان تخيل مشهداً شاخصاً أمامه، يحسه بكل مشاعره وأحاسيسه، عن طريق التخالف الذي (يستمد دلالاته الاستدعائية من تشكيل طبيعته التركيبية ... القائمة على الدال الحاضر والدال الغائب، متمثلين في طرفيها المثبتين في البناء اللغوي اللذين يمثلان الدال الحاضر، وفي طرفين مقابلين لهما يمثلان الدالين الغائبين)⁽⁵⁾.

¹ ابن دريد، 1987 م، جمهرة اللغة، (مادة: قبل) 232، الزنجشيري، أساس البلاغة، ص 659.

² العسكري أبو هلال الحسن، 2004 م، كتاب الصناعتين ص 346.

³ القزويني الإمام الخطيب 2004 م، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 353.

⁴ الربيعي موسى سلوم عباس، الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، ص 207.

⁵ القرعان فايز، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، ص 328.

لقد اتخذ القرآن الكريم من المقابلة وسيلة توضح حال أهل الجنة وحال أهل النار عن طريق وصف كل فريق منهما، وبيان ما يتميز به وما يشعر، ثم يذكر قبالة صورة الفريق الثاني ليتسنى للمتلقي إدراك مميزات كل فريق عن طريق مقارنته بالآخر، فضلاً عن الطباقات الحاصلة بين مفردات الصورتين وما تحدثه في النفس نتيجة ذلك التخالف كما في قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف الآية : 8 - 9).

إذ وصف لنا الحق سبحانه وتعالى حال المفلحين وسبب فلاحهم وحال الخاسرين وسبب خسارتهم، متخذاً من الميزان سبيلاً لذلك الوصف، ذاكراً لنا طباقات لها أثرها في الميزان، وعن طريق ما تحدثه من أثر في ذلك الميزان يقع الوصف، فالوصف في المقابلة يأخذ سبيلين: الأول: استعمال طباقات متضادة في المعنى، وعن طريق ذلك التضاد يتولد لنا وصف دقيق يوضح فيه الحق تعالى حالاً من الأحوال التي أراد توضيحها، وهذا السبيل الأول يؤدي بدوره إلى وصف آخر يتمثل في إجراء مقابلة بين الصورتين المتناقضتين اللتين اتضحنا في الطباقات السابقة، متخذاً من الغياب والحضور الوسيلة الأساسية في رسم الصورة في المستوى الأول من الوصف، وقد ساعد في رسم هاتين الصورتين الكناية الواردة في الآية الكريمة، فلم (يعد جعل الوزن كناية عن العدل) ⁽¹⁾.

إن التضاد بين (ثقلت وخفت) يولد صورة ذهنية مضادة لصورة الواقع، وهذه الصورة عبارة عن طباق تضاد أيضاً، مما يجعل من توافقهما مستحيلاً، فكلما ذكرت لفظة (ثقلت) حضرت في الذهن لفظة (خفت)، وهذا يجعل من يتصور حال أهل الجنة يتصور معها حال أهل النار، والعكس كذلك.

وهكذا الحال بالنسبة للفظتي (المفلحون ، والذين خسروا أنفسهم)، فإنهما يحدثان تقابلاً ضدياً فيما بينهما (حضوراً وغياباً)، وبهذا فإن الطباق يرسم لنا أولاً صورة دقيقة لحال الأعمال (ثقلت، وخفت) فالثقل (عبارة عن الاعتماد اللازم سفلًا ونقيضه الخفة، وهي الاعتماد اللازم علوًا، ومثلت الأعمال بهما لما ذكر من المقارنة) ⁽²⁾ ثم بعد ذلك تجمع الصورتان عن طريق مقابلة كل واحدة منهما بالأخرى وصف كل واحدة منهما بدقة بالغة، وبهذا فإن الوصف الجدلي عن طريق المقابلة قد وفر لنا فرصة الموازنة بين صورة أهل الجنة وصورة أهل النار، وهذه الموازنة تكشف لنا ما تمتاز به كل صورة من هاتين الصورتين فنتخيل لذة نيل الجنة والفرح الذي ينتاب من ينالها، ونتخيل مأساة أهل النار ومعاناتهم نتيجة خسارتهم أنفسهم.

¹ الرازي، محمد فخرالدين، 1938 م، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ص 14 . 25.

² أبو جعفر الطوسي، 1409 هـ، التبيان في تفسير القرآن - تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي - مطبعة مكتب الأعلام الإسلامي - الطبعة الأولى . 4 / 353.

ومما يزيد من دقة الوصف هنا تجسيم الأعمال، إذ (جعل لوزن الأعمال المعنوية موازين حسية) ⁽¹⁾، ثم إنه عندما ذكر (ثقلت) جعلها تؤدي إلى نتيجة حتمية وهي الفلاح، وخلاف ذلك عندما يذكر (خفت) التي تؤدي إلى الخسران المبين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّؤَمِّدُ مُسْفِرَةٌ ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿ وَوُجُوهٌ يُّؤَمِّدُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ ﴿ تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ (عبس الآية : 38 - 42) يصف القرآن الكريم حال أهل الجنة ونعيمهم، وأهل النار ومعاناتهم، وقد اتخذ من الوجه مرآة تنعكس بها الحال التي عليها كلا الطرفين، فالوجه أكثر الأجزاء التي تظهر عليها حال الإنسان من فرح وحزن أو ترف وتعب؛ لأن (الوجه مرآة القلب في سروره ومساء ته) ⁽²⁾ فالمقابلة وقعت بين (مسفرة وضاحكة ومستبشرة) من جهة، (عليها غبرة وترهقها قتره والكفرة) وهما صورتان متضادتان، لكل واحدة منهما حضور ذهني يولد صورة غائبة عن الذهن، ويستمر التضاد - الحضور والغياب - في هاتين الصورتين في جميع الأحوال، مما يقودنا إلى فهم أن الوصف هنا اتخذ من الثنائية المتأتية من المقابلة بين الصورتين أعطى صفة الديمومة والاستمرار في التضاد بين هاتين الصورتين وعدم الالتقاء في الدنيا والآخرة. وهذا يصف لنا دقة الحساب والجزاء عند الله - تعالى - ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (الكهف من الآية: 49) وهذا ما يتضح لنا التضاد في أعمال الدنيا وتضاد في نتيجة الآخرة، الديمومة والاستمرار في هذا التضاد وعدم الالتقاء وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿ لِلطَّاغِينَ مَابًا ﴿ لَا يَثْبِثُ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿ لَا يَدْخُلُونُ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَقَارًا ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿ (النبا الآية: 21. 36) ومن هنا نلاحظ وصفاً دقيقاً لصورتين من صور حياة الآخرة، يصف فيها الحق - سبحانه وتعالى - حال أهل النار وحال أهل الجنة ليتسنى للمتلقى الموازنة بين الصورتين، وقد اتخذ الأسلوب القرآني من الجدل الثنائي بين الجنة والنار الوسيلة في هذا الوصف، فجاء متناسقاً مع معاناة أهل النار، وراحة أهل الجنة، ومما يلفت النظر هنا أنه استهل وصف الصورتين بالحرف (إن) الذي يفيد التوكيد - (تأكيد وقوع الحدث يوم القيامة، ثم إن النص القرآني وهو يصف حال أهل النار جعل من جهنم في شوق للكافرين فهي ترصد ورودهم عليها فتكون جزاء لهم بما عملوا في الحياة الدنيا ؛ لأن الرصد الاستعداد للترقب ⁽³⁾.

¹ قنبي حامد صادق، 1984 م، المشاهد في القرآن الكريم، دراسة تحليلية وصفية، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى ص 183.

² الطبطبائي محمد حسن، 1391هـ، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 10 / 210.

³ الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن الكريم، (مادة: رصد).

والمرصاد: موضع الرصد ، ويقال للمكان الذي اختص بالترصد (المرصاد) وإنما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ تنبيهاً على أن عليها مجاز الناس، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (مریم الآية: 71) (ومرصاد) على وزن مفعال من الرصد، وهو من (أبنية المبالغة كالمعطاء والمعمار والمطعان، قيل إنها ترصد أعداء الله وتشق عليهم)⁽¹⁾، ثم يمضي الحق - سبحانه وتعالى - بذكر مجموعة مما تتصف بهم جهنم، إذ إنها فضلاً عن كونها مرصاداً للكافرين، فهي لهم مآباً وهو (اسم مكان من الأوب وهو الرجوع، والغاية في عدها مآباً للطاغين أنهم هياؤها مأوى لأنفسهم وهم في الدنيا ثم إذا انقطعوا عن الدنيا أبو ورجعوا إليها)⁽²⁾ وهم يلبثون فيها أحقاباً، وهي الأزمنة الكثيرة والدهور الطويلة من غير تحديد، وإنما جعلها كذلك مبالغة في مدة بقائهم فيها، وأطلقها ليذهب بها الذهن أيما مذهب.

وعند الانتهاء من إطلاق المدة الزمنية لبقائهم فيها، شرع الباري - عز وجل - يوضح ما يأكلون وما يشربون؛ لأن البقاء لكل هذا الوقت يحتاج معه إلى الزاد (من مأكّل ومشرب) ، لذا ذكر عدم حصولهم على أي شيء يستظلون به، أو أي شيء بارد يروي ظمأهم، والوصف هنا يرسم لنا صورة من أبشع ما يكون، وهي حال أهل النار (للطاغين)⁽³⁾ الذين لا يتذوقون برداً ولا شرباً، وإنما قال: (لا يذوقون فيها برداً) على وجه الاستعارة؛ لأن البرد هنا (مطلق ما يتبرد به غير الشراب كالظل الذي يستراح إليه بالاستئصال فالمراد بالذوق مطلق النيل والمس)⁽⁴⁾ لذلك استعار لفظ (يذوقون) للبرد بقرينة المس والانتفاع به، والدليل على أنه أراد بالبرد الظل هو: أولاً المقابلة بينه وبين الشراب فالشراب هنا كناية عما يؤكل والبرد هنا كناية عما يظل وينتفع به مما سوى الشراب. ثانياً إنه لما ذكر جهنم دل ذلك على امتلاء جوفها بالنار والحر الشديد فدل ذلك على انعدام الظل؛ لأن الإنسان عندما يهرب من النار والحرارة إنما يأوي إلى ظل يستريح إليه، وليس هذا موجوداً في جهنم⁽⁵⁾. عندما ذكر الحق - سبحانه وتعالى - صفات الجنة قال: (حدائق وأعناباً) فذكر المكان (حدائق) والطعم (أعناباً)، وهذا يصدق على أهل النار فكان حراً أن يكون قد ذكر المكان أيضاً والطعم.

ثم يؤكد بعد ذلك ما يذوقون ويكسبون، فقال: (إلا حميماً وغساقاً) فالحميم هو الماء الحار الشديد الحرارة، والغساق صديد أهل النار، إذا سال من أجسادهم وهو من وزن (غسق - يغسق - غسوقاً)⁽⁶⁾. وقيل هو الزمهرير أو البرد الشديد

¹ الرازي، محمد فخر الدين 1938 م، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: 12 / 31.

² الطبطبائي محمد حسن، 1391هـ، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 20 / 167.

³ الطاغون: هم المتلبسون بالطغيان، وهو الخروج عن الحد، الطبطبائي محمد حسن، 1391هـ، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 20 / 167.

⁴ الطبطبائي محمد حسن، 1391هـ، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 20 / 160.

⁵ الرازي، محمد فخر الدين 1938 م، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ص 14 وما بعدها.

⁶ جامع البيان عن تأويل القرآن. تحقيق صدقي جميل العطار. الناشر دار الفكر. بيروت. 1415 هـ. 23 / 178.

الذي لا يطاق، فالحميم يحرق بحره، والغساق يحرق ببرده⁽¹⁾ ومما يدعم هذا الرأي هو المقابلة بين الاثنين (الحميم والغساق) فهو ضد الحميم، لشدة برده المؤلم لا يستطيع⁽²⁾. ولا يواجهه من نتنه⁽³⁾.

من هنا تكون الإحاطة والشمول بكل وسائل العذاب في النار التي يجسمها لنا الطباق بين (حميم وغساق) وكأن القرآن الكريم (خوف بزمهير الثلج كما خوف بلهيب النار)⁽⁴⁾ فيكون الأكثر وقعاً في النفوس وترهيباً لها من مثل هذا العذاب.

وبعد ذكر وصف أهل النار يورد لنا الخالق - عز وجل - وصفاً لأهل الجنة ليتسنى لنا الموازنة بين الصورتين، فنستطيع بذلك اكتشاف ما تمتاز به كل صورة من هاتين الصورتين. لذا قال في وصف أهل الجنة: (إن للمتقين مفازاً) فوصفهم بالتقوى وهي ضد الطغيان الذي نعت به أهل النار، وقد جعل (مفازاً) وهي مصدر، أو اسم مكان ومعناه النجاة والتخلص من الشر والحصول على الخير، وهو الظفر بالخير مع حصول السلامة، والآية تحتل الوجهين (المصدرية والظرفية)⁽⁵⁾، ومفازاً هنا كناية عن الجنة؛ لأن الجنة هي الهدف من العمل الصالح في الحياة الدنيا ومن التقوى، وإنما يعمل الإنسان صالحاً ويتقي الله - تعالى - ليكون نصيبه في الآخرة الجنة التي وعد المتقون، لذا شرع الباري - عز وجل - بذكر ما تتصف به الجنة، ووصف حال من فيها فقال: (حدائق وأعناباً)، فذكر الحدائق وهي البساتين المحوطة بها، ثم ذكر الأعناب، وهي الثمار، فكان ذلك أكثر شمولاً وإحاطة للمعنى، ثم ذكر صفة أخرى تتمثل بقوله تعالى: ﴿وَكَوَاعِبُ أَثْرَابًا﴾ (النبا، الآية 33)، والكاعب هي الفتاة التي تكعب ثدييها واستداراً مع ارتفاع سير، والترائب جمع (ترب) وهي المماثلة لغيرها من اللذات⁽⁶⁾، ثم قال: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ (النبا، الآية 34) والدهاق المترعة المملوءة، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل⁽⁷⁾. الفاعل⁽⁷⁾. وهذا كناية عن ترف العيش ورغده، وبعد ذلك يذكر صفة أخرى تتمثل بذكر أحاديثهم، فهم لا يتحدثون بحديث لا يترتب عليه أثر مطلوب، ولا يكذب بعضهم على بعض، فقولهم حق له أثر مطلوب وصدق مطابق للواقع، وهو كناية عن الالتزام والتقوى وجمال الطبع والتربية الحسنة.

¹ الزمخشري جار الله محمود، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 3 / 379.

² ابن كثير أبي الفداء إسماعيل، 1401 هـ، تفسير القرآن لعظيم - مطبعة الحلبي، الناشر دار الفكر، بيروت، 41/4.

³ المصدر السابق - 4 / 464.

⁴ قنبي حامد صادق، 1984 م، المشاهد في القرآن الكريم، ص 183.195.

⁵ الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، المفردات في غريب القرآن الكريم، (مادة: فوز) / 387.

⁶ ينظر المصدر السابق: مادني (كعب، وترب)، الزمخشري جار الله محمود، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، 4 / 69.

⁷ الطبرسي أبو علي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق السيد هاشم الرسول الحملائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 10 / 424.

المطلب الثالث

الاستدلال بالمثل في القرآن الكريم:

الاستدلال هو إقامة الدليل، أو هو فعل الذهن الذي يلمح علاقة مبدأ ونتيجة بين قضية وأخرى، وينتهي بالصدق أو الكذب.

ثم نعلم أن إدراكنا العقلي محدود، لذا كان الوصف الاستدلالي معتمداً على البرهان في إثبات الحقائق والاستدلال عليها، وهو أحياناً بحاجة إلى التشبيه والتمثيل للاستدلال على تلك الحقائق وإثباتها؛ لأن في ضرب الأمثال ما لا يخفى من تقرير المقصود وتوضيحه، فالغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد. وبهذا يصبح التمثيل وسيلة تقريرية لإثبات حقائق أراد الله - تعالى - إثباتها للإنسان فإن من شرعة الله - تعالى - في كتابه العزيز أن يستعمل ضرب الأمثال تقريباً لما يجب أن تنفعل به النفوس وتؤمن به القلوب ⁽¹⁾.

لقد اعتمد القرآن الكريم أسلوب التمثيل سبيلاً إلى الاستدلال على الحقائق وإقامة الدليل عليها، ومما يدل (على أن للإحساس من التحريك للنفس، وتمكين المعنى ما ليس لغيره، إنك إذا كنت أنت وصاحب لك يسعى في أمر، على طرف نهر، وأنت تريد أن تقرر له: أنه لا يحصل من سعيه على طائل، فأدخلت يدك في الماء، ثم قلت له: (انظر هل حصل في كفي من الماء شيء؟ فكذلك أنت في أمرك كان لذلك ضرب من التأثير في النفس، وتمكين المعنى في القلب، زائد على القول المجرد) ⁽²⁾.

وهذا يعني أن في التمثيل إقامة دليل على ادعاء ماء، من أجل البرهنة على صحة هذا الادعاء وتقرير ثبوته للمتلقي بأسلوب الإثبات المادي الذي يخاطب العقل. وإذن فإن له وظيفة استدلالية استكشافية ⁽³⁾ من هنا كان لضرب الأمثال (تبكيك للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسورة الجامع الأبي، فإنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه، ولذلك أكثر الله - تعالى - في كتابه، وفي سائر كتبه من الأمثال) ⁽⁴⁾؛ لأن النصوص القرآنية موجهة للناس كافة، والإنسان بطبعه (يصدق بحكم الغائب متى كان ذلك معلوم الوجود في الشاهد) ⁽⁵⁾ لذا فإن القرآن الكريم يمثل بالشاهد ليتصور الناس المعنى الغائب، ولتقريب القضايا المجردة إلى إفهام الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

¹ للزركشي، 1972م، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1/ 48.

² القزويني الإمام الخطيب، 2004م، الإيضاح في علوم البلاغة، ص. 220. 221.

³ محمد مفتاح، 1994م، التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ص. 94.

⁴ السيوطي جلال الدين، 1967م، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، 4 / 106.

⁵ ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد 1978م، فلسفة ابن رشد دار، الأفق، بيروت، ص. 106.

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ (الروم الآية : 28) فقد نهج القرآن الكريم في ذلك نهجاً عقلياً استدلالياً في إقامة الدليل على وحدانية الله - تعالى - ^(١)؛ لأن (التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها؛ لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها) ^(٢) لذا فإنه سبحانه وتعالى ساق لنا دليلاً قريباً علينا من أنفسنا، مقدماً القول (بمن) التي تفيد ابتداء الغاية، وإنما قال: (من أنفسكم) مع حقارتها ونقصانها وعجزها، وقاس عليها نفسه مع عظمتها وكما لها وقدرتها ^(٣) .

وبعد بيان أن المثل مساق من نفس الإنسان شرع في ذكر المثل، مستخدماً الاستفهام الإنكاري الذي يفيد النفي . أي نفي قبولهم مثل هذا الأمر . وقد أنكر الله - تعالى - فعلهم هذا، وبعد هذا الاستفهام أورد مضمون المثل ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ (الروم من الآية 26) وهو اتخاذ شركاء لكم من عبيدكم فيما رزقناكم، والذي هو ملك لكم وفي الحقيقة ليس لكم بل هو من الله - تعالى - ومن رزقه، والذي من الله هو في الحقيقة له، فإذا كنتم وأنتم من جنس واحد ترفضون أن يشارككم عبيدكم في ما ملكتم بالاسم وليس بالحقيقة، فكيف ترضون ذلك على الله - تعالى - وهو المالك لكل شيء ؟ وكذلك فإن ملك اليمين الذي عندهم لعبيدهم يمكن أن يزول بالبيع، أو العتق لهؤلاء العبيد في حين أن ملكية الله - تعالى - لعبيده لن تزول مطلقاً، فإذا لم يجوز أن يكون مملوك يمينكم شريكاً لكم مع إنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه، بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى إنكم ليس لكم تصرف في روحه وآدميته بقتل أو قطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكاً له ^(٤) .

إن الاستدلال على وحدانية الله - تعالى - بهذا المثل واضح وبين (لا مجال للجدل فيه، وهو يركز إلى المنطق البسيط، وإلى العقل المستقيم) ^(٥)، لبيان بطلان ما يزعمون من أن الله شركاء، وإثبات وحدانيته، فقد (انتزع الله للمشركين من واقعهم مثلاً وحاججهم بمقتضاه) ^(٦) .

^١ الصغير محمد حسين علي، 1981 م - الصورة الفنية في المثل القرآني - دار الرشيد - بغداد، ص 359.

^٢ الزنجشيري جابر الله محمود . الكشاف 3 / 478.

^٣ الرازي، محمد فخرالدين 1938 م، التفسير الكبير - 25 / 118.

^٤ المصدر السابق - 25 / 118.

^٥ قطب سيد، في ظلال القرآن، 6 / 452.

^٦ محمد حسين علي الصغير - الصورة الفنية في المثل القرآني: 365.

وقد ألقى المثل في صورة الاستفهام الإنكاري⁽¹⁾ ولو ذكر الله - تعالى - الخبر دون استدلال عن طريق المثل لما أفاد المعنى الذي أفاده الآن؛ لأن (الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته، والمثل مقرون بالحجة

ألا ترى أن الله - عز وجل - لو قال لعباده: إني لا أشرك أحداً من خلقتني في ملكي لكان ذلك قولاً محتاجاً إلى أن يدل على العلة فيه ووجه الحكمة في استعماله، فلما قال: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له في ملكه من خلقه؛ لأنهم علمون أنهم لا يقرون أحداً من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه، فإن الله - عز وجل - أولى أن يتعالى عن ذلك⁽²⁾.

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة الآية: 261) انتزع مثلاً من الطبيعة لتكون دليلاً على حقيقة أراد الله - تعالى - ببيانها للناس ألا وهي مضاعفة الحسنات الناتجة عن الإنفاق في سبيل الله متى ما تحقق فيها قصد سبيله تعالى خالصة لوجهه الكريم. فقد شبه القرآن الكريم (المتصدق بالزراع وشبه الصدقة بالبذر فيعطيه الله بكل صدقة سبعمئة حبة)⁽³⁾.

فإن مادة التمثيل إنما هي الحبة المنبئة لسبعمئة حبة، وهذا التمثيل (تصوير للأضعاف، كأنها ماثلة بين عيني الناظر)⁽⁴⁾. وقد أسند الإنبات إلى الحبة، والمثبت الحقيقي هو الله تعالى؛ لأن الحبة إنما كانت هي السبب في ذلك الإنبات، لذا أسند إليها هذا الإنبات على سبيل المجاز كما يسند إلى الأرض وإلى الماء، ومعنى أنبت أي: أن تخرج ساقاً يتشعب منها سبع شعب، لكل واحدة سنبل. والتشبيه هنا (يساعد الإنسان على تخيل الحركة التي تصحب زراعة الحبة ونمائها، ثم إخراجها إلى سبع سنابل في كل واحدة منها مئة حبة، فلم يث التشبيه الحياة في الحبة فقط، وإنما أكسبها الحياة عن طريق وصفها بالإنبات، ثم النمو بعد ذلك)⁽⁵⁾.

ثم إنه سبحانه وتعالى قال: سبع سنابل ولم يقل سنبلات، مع أن القاعدة تقتضي الإتيان بجمع القلة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

¹ الطبطبائي محمد حسن، 1391هـ، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 16/ 176.

² البغدادي قدامه بن جعفر، 1937 م، نقد النثر، تحقيق طه حسين، عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، ص 57.

³ القرطبي، 1985م، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - 3 / 303.

⁴ جار الله محمود الزمخشري. الكشف 2 / 310.

⁵ الربيعي موسى سلوم عباس، الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، ص 165.

أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿﴾ (يوسف جزء الآية: 43) لأن الموضوع هنا موضع إثبات الكثرة (في كل ما يمكن أن يتوهم في المقام فأتى بالعدد 'ثم بالجمع ثم بالكثرة ثم بالضعف')⁽¹⁾.

من هنا يتضح لنا أن الله - تعالى - اتخذ من التمثيل في الآية المباركة دليلاً على مضاعفته للحسنات متى كان القصد منها ابتغاء وجه الله - تعالى - ومن ذلك أيضاً تبين لنا أن القرآن الكريم وصف لنا عملية زرع الحبة وإنباتها ونموها للاستدلال بهذه العملية على المضاعفة للأعمال الحسنة عند الله - تعالى -، وهذا ما يدل على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة من الآية: 261) فإن التمثيل إلى جانب دلالاته على التشبيه، فإنه يملك القدرة على التجسيد والتصوير بالعبارات والكلمات للاستدلال بما على ما خلق، وعلينا أن نتذكر أن الأدلة إنما أقامها الله - تعالى - أمام أعين المكلفين (لينظروا فيها ويستدلوا، فالعيان هو الأدلة المادية القائمة في العالم والتي تدل على أحكام الصنعة ووجود الخالق الصانع المبدع)⁽²⁾.

الخاتمة

بتوفيق من الله وكرمه عليّ بعد إتمام هذا البحث، أن أبين أهم النتائج التي توصلت إليها:

1. تبين لي من خلال هذا البحث أن الوصف في كلامي يدخل في جميع الأغراض النثرية والشعرية، لذا اتخذ الحق - سبحانه وتعالى - وسيلة في نقل الأفكار المعنوية إلى البشر بطريقة تمكننا من إدراكها.
2. اعتمد القرآن الكريم الوصف الاستدلالي في استنباط الأحكام والبرهنة عليها، فقد سعى إلى وصف حقائق ثابتة لدى الإنسان؛ لأجل إثبات حقائق أخرى تقوم عليها.
3. اتخذ القرآن الكريم الجدل القائم على الثنائية الواصفة المعبرة عن الأفكار سبيلاً في وصف الأحداث، عن طريق التقابل بين لفظين، أو فكرتين متضادتين تفصح كل واحدة منهما عن مضمونها تاركة للأخرى مقابلتها لها في المعنى، متيحة للعقل فرصة تدبر البلاغة المتأتية من هذا التقابل وإبراز المعاني المشعة من حروفها، واصفة لنا تلك القدرة العجيبة التي تمكنت من الجمع بين الأضداد.
4. اعتمد التنزيل الحكيم الطباق والمقابلة في الوصف الجدلي؛ لأجل إبراز قدرة الخالق - عز وجل - وعظمته وغضبه وعقابه، لتكون الأكثر تأثيراً والأشد وقعاً في النفوس عن طريق الوحدات التعبيرية التي تشكل العنصر الأساس في تحديد

¹ عبد الأعلى السيد، 2010م مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مطبعة نكين 4 / 360.

² أبو زيد نصر حامد، 1983 م، الاتجاه العقلي في التفسير - دراسة في قضية المجاز عند المعتزلة، دار التنوير للطباعة، بيروت، الطبعة الثانية، ص53.

الدلالات الاستدعائية المتأتية من شبكة العلاقات التي يفرضها السياق المبني في الوصف الجدلي القائم على الثنائية بين الألفاظ المتضادة.

5. اهتم القرآن الكريم بأسلوب التمثيل سبيلاً إلى الاستدلال على الحقائق وإقامة الدليل عليها، وتعزيز ثبوتها للمتلقي إثباتاً مادياً.

إذ أن القرآن الكريم يمثل بالمشاهد ليتصور الناس المعنى الغائب؛ لأجل تقريب القضايا المجردة إلى إدراكنا.

ويوصي الباحث بالتوسع في الدراسات القرآنية الفنية الواصفة لآيات القرآن التي تتناول الإعجاز البياني والبديعي، لما لها من أهمية في لغتنا العربية، لغة القرآن الكريم، باعتبارها الأساس لمعرفة الإعجاز القرآني.

المصادر والمراجع:

أولا المؤلفات:

- 1 - الزمخشري جار الله محمود، 2003 م، أساس البلاغة، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت.
- 2 - أبو زيد نصر حامد، 1983 م، الاتجاه العقلي في التفسير - دراسة في قضية المجاز عند المعتزلة، دار التنوير للطباعة، بيروت، الطبعة الثانية.
- 3 - السيوطي جلال الدين، 1967 م، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة.
- 4 - الأصفهاني أبو الفرج، بدون تاريخ، الأغاني، شرحه ووضع فهارسه الأستاذ علي مهنا وغيره، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة جديدة منقحة ومصححة.
- 5 - القزويني الإمام الخطيب جلال الدين 2004 م، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، الناشر المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- 6 - لاشين عبد الفتاح، 1979 م، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف القاهرة، الطبعة الأولى.
- 7 - للزركشي، 1972 م، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.
- 8 - محمد عبد المطلب، 1997 م، البلاغة العربية، الشركة المصرية العالمية، القاهرة، الطبعة الأولى.
- 9 - محمد عبد المطلب، 1988 م، بناء الأسلوب في شعر الحداثة، التكوين البديعي، القاهرة.
- 10 - أبو جعفر الطوسي، 1409 هـ، التبيان في تفسير القرآن - تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي - مطبعة مكتب الأعلام الإسلامي - الطبعة الأولى
- 12 - الجرجاني علي بن محمد بن علي، 1405 هـ، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى.
- 13 - الرازي، محمد فخرالدين، 1938 م، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، المطبعة البهية المصرية، الطبعة الأولى.

- 14 - القرعان فايز، التقابل والتماثل في القرآن الكريم.
- 15 - محمد مفتاح، 1994 م، التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى.
- 16 - القرطبي، 1985 م، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 17 - الصغير محمد حسين علي، 1981 م - الصورة الفنية في المثل القرآني - دار الرشيد - بغداد.
- 18 - العلوي يحيى بن حمزة، 2010 م، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، تحقيق الشربيني شريدة، الناشر دار الحديث، القاهرة.
- 19 - القيرواني أبي علي الحسن بن رشيق، 1996 م، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، - تقدم صلاح الدين الهواري، هدى عودة - الناشر دار ومكتبة الهلال - بيروت - لبنان.
- 20 - الزمخشري جار الله محمود، 1947 م، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- 21 - الكفوي أبو البقاء الحسيني، 1976 م الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية وأعدده للطبع ووضع فهارسه - عدنان درويش - محمد المصري - الناشر: دار الكتب الثقافية - دمشق - سوريا.
- 22 - قنبي حامد صادق، 1984 م، المشاهد في القرآن الكريم، دراسة تحليلية وصفية، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى.
- 23 - صليبا جميل، 1982 م، المعجم الفلسفي، الناشر دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.
- 24 - الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب، بدون تاريخ، المفردات في غريب القرآن الكريم، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- 25 - الزبيدي السيد محمد مرتضي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية.
- 26 - ابن كثير أبي الفداء إسماعيل، 1401 هـ، تفسير القرآن لعظيم - مطبعة الحلبي، الناشر دار الفكر، بيروت.
- 27 - ابن دريد، 1987 م، جمهرة اللغة، تحقيق وتقديم رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

- 28 - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع. تألیف السید أحمد الهاشمی. ضبط وتدقیق الدكتور یوسف الصمیلی . الناشر المكتبة العصرية صیدا - بیروت - 2005 م.
- 29 - بن الأثیر الحلبي نجم الدین أحمد بن إسماعیل، بدون تاریخ، جواهر الكنز، تلخیص كنز البراعة فی أدوات ذوي البراعة، تحقیق محمد زغلول سلام. الناشر منشأة المعارف . الإسكندرية . مصر.
- 30 - الصبان أبو العرفان محمد بن علي، حاشية الصبان علی شرح الأشموني، الناشر دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- 31 - طه حسین، 1982 م، حديث الأربعاء، الناشر دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة عشرة .
- 32 - البغدادي عبد القادر بن عمر، 1998م، خزانة الأدب، وضع هوامشه الدكتور محمد نبیل طریفی - الناشر دار الكتب العلمية - بیروت - لبنان - الطبعة الأولى.
- 33 - بن ضرار الذیابني، 1968 م، دیوان الشماخ، حققه وشرحه صلاح الدین الهادي، الناشر دار المعارف بمصر كورنيش النيل - القاهرة ..
- 34 - الحري إبراهيم، 2003 م، غريب الحديث، مصدر الكتاب موقع جامع الحديث، غير موافق للمطبوع.
- 35 - حاوي إلیا، 1959 م، فن الوصف وتطوره فی الشعر العربي، الناشر دار الشرق الجديد، الطبعة الأولى.
- 36 - أبو الرضا سعد، 1988م، فی البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات فی البلاغة العربية، منشأة المعارف - الإسكندرية.
- 37 - الزركلي خير الدین، 2002 م، الأعلام، الناشر دار العلم للملايين - بیروت - لبنان.
- 38 - العسكري أبو هلال الحسن، 2004 م، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقیق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر المكتبة العصرية صیدا - بیروت.
- 39 - الفراهيدي الخلیل بن أحمد، بدون تاریخ، كتاب العين، تحقیق مهدي المخزوم، إبراهيم السامرائي، الناشر دار ومكتبة الهلال، الطبعة .
- 40 - ابن سینا الحسین بن عبد الله، 1959 م، كتاب المقولات ضمن كتاب الشفاء، قسم المنطق، تحقیق جورج فنواي - محمود الخضيري، وغيرهما. القاهرة.

- 41 - ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، الناشر دار صادر بيروت، لبنان.
- 42 - عبد رجاء، 1985 م، لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي الحديث، الإسكندرية، مصر، منشأة المعارف.
- 43 - الطبرسي أبو علي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق السيد هاشم الرسول الحamlاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- 44 - السيوطي جلال الدين، 1969 م، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد البحايي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 45 - ابن فارس أبو الحسين أحمد، 1999 م، معجم مقاييس اللغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- 46 - السكاكي أبو يعقوب، 1982 م، مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان سلمان، الناشر دار الرسالة، بغداد، الطبعة الأولى.
- 47 - القرطاجني أبو الحسن حزم، 1986 م، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الناشر دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان.
- 48 - عبد الأعلى السيد، 2010 م مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مطبعة نكين.
- 49 - ابن جعفر، أبو الفرج قدامه، 1978 م، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى - الناشر - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثالثة ..
- 50 - البغدادي قدامه بن جعفر، 1937 م، نقد النث، تحقيق طه حسين، عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية.
- 51 - ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد، 1978 م، فلسفة ابن رشد دار، الأفق، بيروت.

ثانياً الأطروحات:

- 1- الربيعي موسى سلوم عباس، 1998 م، الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، رسالة ماجستير.

المصادر والمراجع:

1. باتريك شارودو ودومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري وحماي صمود، المركز الوطني للترجمة تونس 2008.
2. جاك موشلر وآن روبول: التداولية اليوم (علم جديد في التواصل) تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، ط1 (2003).
3. جاك موشلر، وآن روبول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة بإشراف عز الدين المجذوب، المركز الوطني للترجمة، تونس 2010.
4. كمال بخوش، الأسس المعرفية لمقاربة النصوص الحجاجية، عرض مفهومي لمصطلحي (الحجاج اللغوي) والعامل الحجاجي، مجلة تعليميات، تصدر عن مخبر تعليمية اللغة والنصوص، جامعة المدية، العدد 09، ص 329-352.
5. عبد السلام إسماعيلي علوي: ما التداوليات ؟ (ضمن كتاب التداوليات - علم استعمال اللغة)، عالم الكتب الحديث، الأردن 2011.
6. شكري المبخوت: نظرية الحجاج في اللغة (ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، منشورات كلية الآداب جامعة منوبة تونس (د.ت).
7. محمد القاضي و آخرون: معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس 2010.
8. عز الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين صفاقس، تونس 2011.
9. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقارنة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1 (2004).
10. J. C. Anscombe et O. Ducrot: L'argumentation dans la Langue, pierre mardaga, (1983).